الشَّيخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ
سُلطانُ العلماءِ
(578 ـ 670هـ)

الشَّيْخُ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلامِ، سُلطانُ العُلماءِ، وقاهرُ السَّلاطِين، خَطيبُ مصرَ والشَّامِ المُفوَّهُ، وقاضي القُضاةِ العالمُ الثَّبتُ الحجَّةُ المُجتهدُ، بائِعُ الأُمراءِ والقادةِ المَماليكِ، مَنْ دانَتْ لِكَلمتِهِ إِرادةُ المُلوكِ والسَّلاطِين، وأعزَّ اللهُ بِهِ أحكامَ الشَّرْعِ والدِّينِ، وعَزَّزَ بِهِ هيبَةَ الإِسلامِ في قلوبِ وعيونِ العِبادِ البُسطاءِ والمُفَكِّرِين، وأذلَّ بِهِ المُتكبِّرينَ والمُتعجرفينَ فَتنادوا عَلى ما انكسرَ مِنْ شَوكَتِهِمْ مُصبحينَ، وطَفقوا يُعلنونَ أنَّ رأيَ الحَقِّ هوَ العزيزُ المَكينُ.

ومَهما تَفَنَّنا في تَفصيلِ الكلامِ لِبيانِ قَدرِ العزِّ بنِ عبدِ السَّلامِ، وفي وصفِ جدِّهِ واجتهادِهِ لِنصرةِ الحَقِّ، وخِدمةِ الإِسلامِ، نَرَى أَنفسَنا مُقصِّرينَ في حَقِّهِ، ولا نُدركُ قَدراً ضَئيلاً مِنْ رَدِّ الجَميلِ الَّذي لَهُ علينا وعَلى سائِرِ العربِ والمُسلمينَ، وإِنَّ مَنْ يَجهلُ أَو يُنكرُ قَدرَ هذا العالمِ الرَّبانيِّ وفَضلَهُ في تاريخِنا المَجيدِ، فَإِنَّهُ بِلا شَكٍّ مِنْ حَقيقَةِ الانتسابِ لِهذا الدِّين ولِهذِهِ الأُمَّةِ عَلى طَرَفي نَقيضٍ. فَما بَالُنا بِعالمٍ عَملَ المُلوكُ والسَّلاطينُ جاهدينَ مِنْ

أجلِ استرضائِهِ، وعَدمِ تَفجيرِ نَقمةِ النَّاسِ عليهِمْ، لِما كانَ يَتمتَّعُ بِهِ مِنْ مَكانةٍ عَظيمةٍ في قُلوبِ العِبادِ، ومِنْ مَنزلةٍ مُهيبَةٍ بينَ العُلماءِ، حيثُ كانَ مِثالاً لِلعالمِ المُخلصِ لِدينِهِ وأُمَّتِهِ، لا يَخشَى في قولِ الحَقِّ وتَأييدِهِ لومَةَ لائِمٍ، ولا يَهابُ مَلكاً أَو سُلطاناً أَو أَميراً في نَقدِ الباطلِ والفَسادِ، وفي زَجرِ الحُكَّامِ عَنِ الحيفِ والظُّلمِ إنْ تَجانفوا لِإِثمٍ أَو عُدوانٍ عَلى أَحدٍ مِنْ أَفرادِ الأُمَّةِ، أَو إذا شَذُّوا عَنْ سَبيلِ العَدلِ والإِحسانِ، أَو جَنحوا إِلى مَعصيَةٍ خالفوا فيها حُكماً مِنْ أَحكامِ الشَّرْعِ أَو عارضوا أَدباً مِنْ آدابِ الدِّين الحَنيفِ.

إنَّ شَجاعَتَهُ وشَكيمَتَهُ في مُقارعةِ الباطلِ ونُصرةِ الحَقِّ تُذكِّرنا بِشخصيَّةِ أَبي ذَرٍّ الغَفّاريِّ الفَذَّةِ الَّتي تَأبَى الضَّيمَ، وتَرفضُ الخُنوعَ لِسَطوَةِ حاكمٍ لا يَخشَى اللهَ في حُكمِهِ، أَو يَخفضُ جناحَ الذِّلِ لِلمنافقينَ المُرائينَ دونَ جَماعةِ المُؤمنينَ الصَّادقينَ، أَو يُعطي الدَّنيَّةَ مِنْ دينِهِ لأَعداءِ الأُمَّةِ، ويُفرِّطُ بِحقوقِ العبادِ والبِلادِ حِفاظاً عَلى مَصالحِهِ الشَّخصيَّةِ، أَو سَعياً في تَدعيمِ أَركانِ مُلكِهِ.

ومِنْ ثُمَّ عاشَ سُلطانُ العُلماءِ في عَصرٍ مِنْ أَشدِّ العُصورِ الَّتي تَعرضَتْ فيها الأُمَّةُ لِلأَحداثِ الجِسامِ في حياتِها وتاريخِها، في عَصرِ الفتنِ والصِّراعاتِ والحروبِ، فَشهدَ الحروبَ الصَّليبيَّةَ، وحروبَ التَّتارِ والمَغولِ، والصِّراعاتِ الدَّاخليَّةَ لِلسَّلاطينِ والمُلوكِ الَّذينَ حَكموا الأُمَّةَ، وشارَكَ بِقوَّةٍ في رسمِ وصياغَةِ المعالمِ الأَساسيَّةِ لِحياةِ أُمَّتِهِ عَلى الصَّعيدِ الدِّيني والسِّياسيِّ بِما يَتوافَقُ مَعَ حدودِ الشَّريعةِ، وتعاليمِ الإِسلامِ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ جِهاداً ضارياً وعَنيفاً، بِسيفِهِ وقلبِهِ ولِسانِهِ، ووَقفَ بِالمرصادِ في وَجهِ الحُكَّامِ الَّذينَ أَرادوا أَنْ يَتلاعَبوا في مَصيرِ الأُمَّةِ حَسبَ أَهوائِهِمْ ومَصالحِهِمْ، وصرخَ في وجوهِهِمْ

صَرخاتِ حَقٍّ، رَدَّدَ التّاريخُ صَداها حَتَّى يَومِنا هَذا، ومِنْ أَجلِ ذَلكَ استحقَّ أَنْ يَكونَ سُلطانَ العُلماءِ بِإِجماعِ الأُمَّةِ قَديماً وحَديثاً.

❊ ❊ ❊

هُوَ الشَّيْخُ العِزُّ أَبو مُحمَّدٍ عِزُّ الدِّينِ بنُ عَبدِ العزيزِ بنِ عبدِ السَّلامِ بنِ أَبي القاسمِ بنِ الحسنِ بنِ مُحمَّدٍ بنِ مُهذَّبِ السّلميُّ، المَغربيُّ الأَصلِ، هاجرَ أَحدُ أَجدادِهِ مِنْ بِلادِ المَغربِ إِلى المَشرقِ، وسَكنَ واستوطنَ في بِلادِ الشَّامِ.

ولِدَ الشَّيْخُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ في دمشقَ سنةَ (578) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها، ورُبِّي منذُ صغرِهِ عَلى التَّقوَى والإِيمانِ، حيثُ كانَ والدُهُ «عبدُ العزيزِ» مِنَ المُتدينينَ والنُّساكِ المَعروفينَ في دمشقَ حِينها.

ويُقالُ إنَّ العزَّ بنَ عَبدِ السَّلامِ، قَدْ سَعَى يَطلبُ العلمَ في سِنٍّ مُتأَخِّرةٍ، فَيذكرُ الشَّيْخُ عَبدُ الوهابِ السُّبكيُّ عَنْ أَبيهِ ـ وكانَ مُعاصراً لِلعزِّ بنِ عَبدِ السَّلامِ ـ في كتابِهِ «طَبقاتِ الشَّافعيَّةِ الكُبرَى» سَببَ اجتهادِ العزِّ في طلبِ العلمِ وتَحصيلِهِ في الحكايَةِ التَّاليةِ:

«كانَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين في أَوَّلِ أَمرِهِ فَقيراً جِدّاً، ولَمْ يَشتغِلْ في العلمِ إِلَّا عَلى كبرٍ، وسَببُ ذَلِكَ أنه كان في بيت في الكلَّاسة ـ وهي الزاوية والبناء والمدرسة عند الباب الشمالي للمسجد الأموي ـ من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد فاحتلم، فقام مسرعاً، ونزل في بركة الكلاسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام، فاحتلم ثانية، فعاد إلى البركة، لأن أبواب الجامع مغلقة، وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من

شدة البرد، أنا أشك (والد السبكي يتكلم) هل كان الشيخ الإمام يحكي أن هذا اتفق له ثلاث مرات أو مرتين فقط، ثم سمع النداء في المرة الأخيرة:

يا بن عبد السلام، أتريد العلم أم العمل؟

فقال الشيخ عز الدين: العلم، لأنه يهدي إلى العمل.

فأصبح، وأخذ «التنبيه» - وهو أهم كتاب مختصر في الفقه الشافعي للشيرازي، ويعتبر الكتاب الأول للمبتدئين - فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم حتى صار أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله».

وفي الحقيقَةِ لِزمَ الشَّيْخُ العِزُّ بَعدَ هَذِهِ الحادثَةِ العَلَّامةَ ابنَ عساكرَ الدِّمشقيَّ، وصَحبَهُ فَترةً طويلةً، كما سَمِعَ إلى عُلماءِ دمشقَ المُبرزينَ في عَصرِهِ، فَبرعَ في مُختلفِ العُلومِ، وصارَ مِنْ كبارِ الفُقهاءِ والعُلماءِ المُجتهدينَ، وفي هذا الصَّددِ يقول الشَّيْخُ العِزُّ عن نفسه:

«ما احْتجتُ في علمٍ من العلومِ إلى أنْ أكملَه على الشيخِ الَّذي أقرأُ عليه، وما توسَّطته على شيخٍ من المشايخِ الذين كنتُ أقرأُ عليهم إلَّا وقالَ لي الشيخُ: (قد استغنيتَ عني، فاشتغلْ مع نفسكَ)، ولم أقنعْ بذلك، بل لا أبرحُ حتى أكملَ الكتابَ الذي أقرؤهُ عليه في ذلك العلمِ».

كما اشتُهرَ بينَ عُلماءِ عَصرِهِ بِورعِهِ وتَقواهُ، وصَرامَتِهِ في دينِهِ، وقُوَّةِ شَكيمتِهِ، وتَحمُّلِهِ الصِّعابَ والشَّدائِدَ في سبيلِ مَرضاةِ رَبِّهِ ﷻ، ونصرةِ الحَقِّ أَينَما كانَ، فَقَدْ جمعَ في شَخصِهِ بينَ العلمِ الرَّاسخِ والخُلقِ الحَسنِ، كما كانَ يَتمتَّعُ بِشخصيَّةٍ قَويَّةٍ أَمامَ العامَّةِ

والخاصَّةِ، وبَرزَ في علمِ الفِقهِ، والدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، كما دأبَ عَلى الأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهْي عَنِ المُنكرِ قَولاً وعَملاً.

وعِندما شاعَ صيتُهُ وعَلا ذكرُهُ بينَ عُلماءِ دمشقَ، صارَ كبيرَ فُقهاءِ المَذهبِ الشّافعيِّ، كما عَيَّنَهُ المَلكُ الصَّالحُ إِسماعيلُ الأَيوبيُّ صاحبُ دمشقَ خَطيباً في الجامعِ الأُمويِّ.

❋❋❋

كانَ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلام خَطيبَ دمشقَ المُفوَّهَ، استطاعَ بِسعةِ علمِهِ، وخطَبِهِ أَنْ يَستقطبَ النَّاسَ، ويَملكَ قُلوبَهُم وأَحلامَهُمْ، ويَشحذَ هِمَمَهُمْ لِجهادِ الصَّلِيبيينَ الَّذينَ كانوا يُعلنونَ الحربَ عَلى الإِسلامِ وأَهلِهِ، ويَشنُّونَ غاراتِهِمْ عَلى ثُغورِ البِلادِ، وقَدْ كانَ العَهدُ بِهِ قَريباً في جَلاءِ الصَّلِيبيينَ عَنْ بيتِ المقدسِ عَلى يَدِ القائدِ البَطلِ صَلاحِ الدِّين الأَيوبيِّ، وقَدْ كانَت العَلاقَةُ بينَهُ وبينَ المَلكِ الصَّالحِ إِسماعيلَ مَتينَةً وحَسنةً قِوامُها الاحترامُ المُتبادلُ، والودُّ والحُبُّ، إِلَّا أَنَّ الأَحداثَ جَرَّتْ ما عَكَّرَ صَفوَ هَذِهِ العلاقَةِ بَينَهُما، فَقَدْ كانَ المَلكُ الصَّالحُ إِسماعيلُ يَطمعُ في الاستيلاءِ عَلى مصرَ وضَمِّها إِلى مَملكَتِهِ، وقامَ بِقتالِ ابنِ أَخيهِ الصَّالحِ نَجمِ الدِّين أَيوبَ حاكمِ مِصرَ، وأَرادَ القَضاءَ عليهِ وانتزاعَ السُّلطةِ مِنْ يَدِهِ، ولِتَحقيقِ هذا المَأربِ والَى الصَّلِيبيينَ وأَعطاهُمْ بَعضَ المُدنِ السَّاحليَةِ، وتَنازلَ لَهُمْ عَنْ حُصونِ مدينةِ صَفد في فلسطين، ومَكَّنَ لَهُمْ مِنْ وجودِهِمْ في المَنطقَةِ، كَما سَمحَ لَهُمْ بِدخولِ دمشقَ لِشراءِ السِّلاحِ والعَتادِ والطَّعام. عِندَها غَضبَ الشَّيْخُ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلامِ، وصَعدَ المنبرَ وخَطبَ بِالنَّاسِ خُطبةً عَصماءَ أَثارَ فيها حَميتَهُمْ ضِدَّ الصَّلِيبيينَ،

وأَفتَى بِحُرمةِ بيعِ السِّلاحِ لِلصَّليبيينَ، وحُرمةِ الصُّلحِ مَعَهُمْ لأَنَّهُمْ مُعتدونَ وغُزاةٌ يُناصبونَ المُسلمينَ العَداءَ والكراهيةَ، كما قَطعَ الدُّعاءَ والخُطبَةَ عَن الصَّالحِ إسماعيلَ، وأَعلنَ العصيانَ العامَ عَلى حلفِهِ مَعَ أَعداءِ الوطنِ والدِّين وهوَ الشَّيْخُ المُجاهدُ الخبيرُ بِمكرِهِمْ وغَدرهِمْ، وقالَ في آخرِ الخُطبَةِ:

«اللَّهُمَّ أَبرِمْ أَمرَ رشدٍ لِهذِهِ الأُمَّة يعزُّ فيهِ أَهلُ طاعَتِكَ، ويذلُّ فيهِ أَهلُ مَعصيَتِكَ، ويُؤمَرُ بِالمعروفِ ويُنهَى عَنِ المُنكرِ»، ثُمَّ نزلَ.

أَثارَ هَذا الأَمرُ حَفيظَةَ وغَضبَ الصَّالحِ إسماعيلَ عَلى الشَّيْخِ العِزِّ، وأَمرَ بِإِبعادِهِ عَن الخِطابَةِ وسَجنَهُ. فَوقعَ الهرجُ والمَرجُ، واستنفرَ النَّاسُ في دمشقَ كُلِّها غيرةً عَلى عالمِهِمْ وفَقيهِهِمْ وخَطيبِهِمْ، فَاضطرَّ الصَّالحُ إِلى إِخراجِهِ مِنَ السِّجنِ، ومَنعَهُ عَنِ الخطابَةِ والوَعظِ والإفتاءِ والاجتماعِ بِالنَّاسِ، ولَكنَّ الشَّيخَ العِزَّ لَمْ يَطقْ صبراً عَلى العيشِ في ظلِّ مَلكٍ لَمْ يَحترَمْ عُهودَ دينِهِ، ووالَى الَّذينَ كَفروا عَلى أَبناءِ جِلدتِهِ وأُمتِّهِ، فَتركَ دمشقَ وقَصدَ مِصرَ.

وإِنْ دَلَّ ذَلكَ عَلى شَيءٍ فَإِنَّما يَدلُّ عَلى شَجاعةِ الشَّيْخِ العِزِّ، وإِخلاصِهِ لِدينِهِ وأُمتِّهِ وقيامِهِ بِواجِبِهِ كَعالمٍ يَحملُ أَمانَةَ العلمِ والدِّين في تَقويمِ اعوجاجِ الحُكَّامِ، ومُعارَضَتِهِمْ إِذا تَراخوا عَن القيامِ بِمسؤولياتِهِمْ اتجاهَ الأُمَّةِ والدِّين والوَطنِ، وفَتحوا حدودَ البِلادِ وأَبوابَ المُدنِ عَلى مِصراعيها لِيَجوسَ خلالَها الأَعداءَ في حالةِ الحربِ أَو السّلمِ، وكَذلِكَ إِلى تَأييدِهِ ووقوفِهِ إِلى جانبِ الحُكَّامِ والمُلوكِ والسَّلاطِينِ المُخلصينَ والمُجاهدينَ الَّذينَ يُواجهونَ الغُزاةَ ويَقودونَ المُقاومَةَ الشَّعبيَّةَ والجَماهيريَةَ ضِدَّهُمْ، ولا يَتنازلونَ عَنْ شِبرٍ

واحدٍ مِنْ أَراضي البِلادِ، أَو يُفرِّطونَ بِحقٍّ واحدٍ مِنْ حُقوقِ الأُمَّةِ، وليسَ عَجباً أنْ يُلاقي سُلطانُ العُلماءِ عِندَ هذا الصِّنفِ مِنَ الحُكَّامِ كُلَّ حَفاوةٍ وإِكرامٍ.

❊ ❊ ❊

وَصلَ الشَّيْخُ العِزُّ مصرَ سنةَ (639) هجريَّةً، فَرحَّب بِهِ أَهلُ مِصرَ تَرحيباً حارّاً، وأَنزلَهُ المَلِكُ الصَّالحُ نجمُ الدِّين أَيوبُ مَنزلاً كَريماً تَقديراً لِمواقفِهِ المُشرِّفَةِ، ولِجهادِهِ بِكلمةِ الحَقِّ المُبينِ لِخيانَةِ الصَّالحِ إسماعيلَ حاكمِ دمشقَ، وكانَ الشَّيْخُ العِزُّ قَدْ مَرَّ عَلى مَدينَةِ القُدسِ وأَشعلَ في نفوسِ أَهلِها الغيرَةَ والحميَةَ لِمقارعَةِ الأَعداءِ، والوقوفَ إِلى جانبِ الملكِ نَجمِ الدِّين لِمواجهةِ المُؤامراتِ والدَّسائِسِ الَّتي يَنسُجُها المَلكُ الصَّالحُ إسماعيلُ ضِدَّ البِلادِ والعِبادِ بالاتفاقِ مَعَ الصَّلِيبيينَ الَّذينَ ساموا أَهلَها مِنْ قَبلُ سوءَ العذابِ.

وسُرعانَ ما أَسندَ المَلكُ الصَّالحُ نَجمُ الدِّين إلى الشَّيْخِ العِزِّ الخِطابَةَ والوَعظَ والتَّدريسَ في جامعِ مصرَ الكبيرِ (جامعِ عَمرو بنِ العاصِ)، كَما ولاهُ مَنصبَ قاضي القُضاةِ، فَكانَ سُلطانُ العُلماءِ أَهلاً لِهذِهِ المَناصبِ، وقامَ بِحقِّها وأَمانتِها خيرَ قيامٍ انطلاقاً مِنَ الشُّعورِ بِالواجبِ والمَسؤوليَّةِ، ومُنذُ الوَهلةِ الأُولى لِتوليهِ منصبِ القَضاءِ، حرصَ عَلى تَنفيذِ أَحكامِ الشَّرْعِ بِالأُمراءِ والقوَّادِ وحاشيَةِ المَلكِ وأَعوانِهِ، قَبلَ تَنفيذِها بِعامَّةِ النَّاسِ، فَلاحَظَ أَنَّ الأُمراءَ المَماليكَ الَّذينَ يُمثِّلونَ عِمادَ حُكمِ المَلكِ الصَّالحِ نَجمِ الدِّين، بَيدِهِمْ مَقاليدُ الأُمورِ، ويَتصرَّفونَ في شُؤونِ البِلادِ والعِبادِ كَما يُريدونَ، ويَبيعونَ ويَشترونَ بِأَموالِ بيتِ مالِ المُسلمينَ بِكُلِّ حُريَّةٍ وإِرادةٍ، ويُولونَ ويَعزلونَ حسبَ ما تُمليهِ عليهِمْ مَصالحُهُمْ

وأهواؤُهُمْ، وهذا يَتعارضُ مَعَ أَحكامِ الشَّرْعِ الَّتي تَنصُّ على أَنَّ المَملوكينَ الأَرقاءَ فاقدونَ لأَهليَّةِ التَّصرُّفِ لأَنَّهُمْ لا يَملكونَ حُريَّتَهُمْ، وقد كانَ الملكُ يَملكُهُمْ مِلكَ اليَمينِ، إذ اشتراهُمْ وأَنفقَ عَلى تَربيتِهِمْ وتَعليمِهِمْ مِنْ أَموالِ الدَّولةِ، ولِهذا أَفتَى بِعدمِ شَرعيَّةِ تَصرُّفاتِهِمْ في البيعِ والشِّراءِ والزَّواجِ والطَّلاقِ، وبِعدمِ أَهليَّتِهِمْ في الولايَةِ أَو تَرؤُّسِ الحُكمِ والسُّلطةِ في بِلادِ الإِسلامِ، ولَمْ يَكُنْ ليَخشَى نِقمَتَهُمْ أو غَضَبَهُمْ عليهِ.

ويَذكُرُ الباحثُ «عبدُ الرَّحمنِ الشَّرقاويُّ» في كتابِهِ «أَئِمَّةِ الفقهِ التِّسعةِ»: أنَّ الشَّيخَ العزَّ لَمْ يمضِ لهمْ بيعاً ولا شراءً، حتَّى تكالبوا عليهِ وشَكوهُ إلى المَلكِ الصَّالحِ الَّذي لَمْ تُعجِبْهُ فَتوَى الشَّيْخِ العِزِّ، فَذَهبَ إلى الشَّيْخِ يَسألهُ أنْ يعدِّلَ منْ فتواه. فَطلبَ مِنهُ الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ:

«نعقدُ لكم مجلِساً ونُنادي عليكم (بالبيعِ) لبيتِ مالِ المسلمينَ»[1]. فاستشاطَ نائبُ السَّلطنةِ غَضباً، وكانَ من المماليكِ، وأقسمَ ليقتلنَّ الشيخَ بسيفهِ. فذهبَ إليه النائبُ مع جماعةٍ من الأمراءِ فطرقَ بابَهُ، ففتحَ البابَ ابنُه عبدُ اللَّطيفِ، فراعَهُ منظرُ نائبِ السَّلطنةِ إذ رأى سيفَهُ مسلولاً، والغضبُ يعلُو وجهَهُ فدخلَ على والدِه وقالَ:

انجُ بنفسكَ، إنَّه القتلُ.

فردَّ عليه الشَّيخُ بقوله: أبوكَ أقلُّ من أنْ يُقتلَ في سبيلِ اللهِ.

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة.

ثمَّ خرجَ، وحينَ وقعَ بصرُه على النائبِ، سقطَ السيفُ من يدِ النائبِ وارتعدَ. فبكَى وسألَ الشيخَ أن يدعوَ له، وقالَ:

يا سيِّدي، ماذا ستفعلُ؟

قال: أُنادي عليكم وأبيعُكمْ.

إلا أن السَّلطانَ لم يذعنْ لحكمِ الشيخِ، فأرسلَ إليه من يتلطَّفُ إليه، وبعدَ إصرارِ الشيخِ أخبرَهُ الرسولُ أن السلطانَ لنْ يسمحَ ببيعِ الأمراءِ، وأمرُ السلطانِ واجبٌ، وهو فوقَ قضاءِ الشيخِ عزِّ الدِّينِ! وعلى أيَّةِ حالٍ فليسَ للشيخِ أن يدخلَ في أمورِ الدولةِ، فشؤونُ الأمراءِ لا تتعلقُ به، بل بالسلطانِ وحده! فأنكرَ الشيخُ تدخلَ السلطانِ في القضاءِ وقامَ فجمعَ أمتعتَهُ ووضَعها على حمارٍ. ووضعَ أهلَه على حميرٍ أخرى، وساقَ الحميرَ ماشياً.

إلى أين يا شيخ؟

قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فيمَ المقام بأرضٍ يُستضعفُ فيها أهلُ الشَّريعةِ، ويُعتدى فيها على القَضاءِ؟!

فَتجمَّعَ أَهلُ مصرَ وراءَهُ وتَبعَهُ العُلماءُ والصُّلحاءُ، فَلَمْ يَجِد المَلكُ بُدّاً مِنَ النُّزولِ عِندَ رَأيِ سُلطانِ العُلماءِ، فَركبَ ولَحقَ بِهِ واسترضاهُ.

وفي اليَومِ التَّالِي جُمعَ الأُمراءُ المَماليكُ ـ ومِنْ بينِهِمْ نائِبُ المَلكِ ـ ونوديَ عليهِمْ بِالبيعِ أَمامَ النَّاسِ، فَكانَ الشَّيْخُ العِزُّ يَذكرُ الثَّمنَ، ويَقومُ الملكُ بِدفعِهِ، ويُودعُهُ الشَّيْخُ بِدورِهِ في بيتِ مالِ المُسلمينَ، ثُمَّ يَقومُ الملكُ بِتحريرِ المَملوكِ ويَهبُ لَهُ الحُريَّةَ أَمامَ

النَّاسِ، حَتَّى حَرَّرَ جميعَ الأُمراءِ المَماليكِ. فَكانَ لِهذِه الحادثةِ صَداها في جَميعِ البِلادِ، وعرفَ القَريبُ والغَريبُ، والقاصي والدَّاني، شَجاعَةَ الشَّيْخِ العِزِّ وتَقواهُ، وقُوَّةَ شَكيمتِهِ في الحَقِّ.

❁ ❁ ❁

ومِن المواقفِ الخالدةِ الَّتي سَطَّرها التَّاريخُ بِأَحرفٍ مِنْ نورٍ عَلى صَفحاتِهِ لِسلطانِ العُلماءِ، والَّتي تُعتبرُ مِثالاً يُحتذَى بِهِ لِكُلِّ عالمٍ يَسعَى إلى مَرضاةِ الخالقِ القَديرِ، أَنَّهُ دَعا النَّاسَ إلى الجِهادِ ضِدَّ جَحافِلِ الغُزاةِ التَّتارِ الَّذينَ اجتاحوا بِلادَ العربِ والإسلامِ وسَفكوا الدِّماءَ، وأَهلكوا الحرثَ والنَّسلَ، وكانَ لَهُ يَدُ السَّبقِ في قيادةِ حملةِ التَّعبئَةِ الماديَّةِ والمَعنويَّةِ لِتجهيزِ الجيوشِ الإسلاميَّةِ ضِدَّهُمْ، كما كانَ لَهُ نَصيبٌ مِنْ عَواملِ الانتصارِ عليهِمْ وتَخليصِ العالمِ مِنْ شَرِّهِمْ بَعدَ هزيمتِهِمْ في معركَةِ عينِ جالوتَ عَلى يَدِ القائِدِ المُظفَّرِ السُّلْطانِ قِطزَ.

فَعندما جمعَ السُلطانُ قطزُ كبارَ العُلماءِ والأَعيانِ وعَلى رأسِهِمْ سُلطانُ العُلماءِ، مِنْ أَجلِ القيامِ بِحملةِ جمعِ التَّبرُّعاتِ مِنَ الشَّعبِ المصريِّ لِشراءِ العتادِ والسِّلاحِ وتَجهيزِ الجيشِ بِها إعداداً لِلمواجهةِ الحاسمةِ مَعَ جيوشِ التَّتارِ، أَفتَى سُلطانُ العُلماءِ بِعدمِ جوازِ جمعِ التَّبرُّعاتِ مِنْ عامَّةِ الشَّعبِ، حَتَّى يبيعَ أُمراءُ المَماليكِ قُصورَهُمْ ومَراكبَهُم الفاخرةَ، ويَتبرَّعونَ بِأَثمانِها لِشراءِ العتادِ والسِّلاحِ، وحَتَّى يَردُّوا ما يَكنزونَهُ مِنْ أَموالٍ وجواهرَ ثَمينَةٍ

إلى بيتِ مالِ المُسلمينَ، فَعملَ المَماليكُ بِرأيِهِ، وكانَ السُّلْطانُ قطزُ أَوَّلَ مَنْ فَعلَ هذا. فَجُمعَتْ أموالٌ عَظيمةٌ لَمْ تكُنْ بِالحُسبانِ.

وكانَ لِهذا العملِ الجَريءِ الَّذي قامَ بِهِ سُلطانُ العُلماءِ أَثَرُهُ الواضحُ في تَحقيقِ النَّصرِ عَلى الأعداءِ، وفي تَلقينِ الأُمَّةِ دروساً وعِبراً في فَنِّ تَحقيقِ النَّصرِ في المَعاركِ والحروبِ.

ومِنْ ثمَّ قضَى الشَّيْخُ العزُّ حياتَهُ كُلَّها في جِهادٍ دائِمٍ بِعلمِهِ وعَملِهِ مِنْ خلالِ الكلمةِ الحرةِ، والقلمِ الشجاعِ، والرَّأيِ الثَّاقبِ، وحملِ السلاحِ ضد الفرنجَةِ الصَّلِيبيينَ؛ للمحافظةِ على حقوقِ الأمَّةِ حتى لَقيَ ربَّه في (10) من جمادى الأولى سنةَ (660) هـجريَّةً عَنْ عُمرٍ ناهزَ الثَّالثَةَ والثَّمانينَ، وأَورثَ الأمَّةَ مِنْ بَعدهِ العديدَ مِنَ مُؤَلَّفاتهِ الهامَّةِ في مُختلفِ عُلومِ الدِّينِ والشَّريعَةِ، ومَنَّ عَلى المُسلمينَ تلاميذَهُ الَّذينَ حملوا مِنْ بَعدهِ مِشعلَ العلمِ ورايَةَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وصارَ سُلطانُ العُلماءِ مضربَ مثلٍ لِلأُمَّةِ في التَّواضعِ والإِحسانِ حَتَّى قيلَ: «لَستَ مِنَ العَوام ولو كُنتَ ابنَ عَبدِ السَّلامِ».